وهم فى صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا، فكأنهم لا يرقبون إلاّ ولا ذمة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابوا، لأنه لو قال: إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله : «فإن تابوا» فيها شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة: ١١]

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن «لاإله إلا الله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة. إذن لكى تتأكد التوبة فلابد أن يؤدى التائب الصلاة فى وقتها كل يوم فهى العمل اليومى الذى لايؤجل ولايتأخر عن وقته، والصلاة قرنت

غالباً بالزكاة فى آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ فى التفصيل هنا المراحل الإيمانية التى بينها الله عز وجل لنا؛ المرحلة الأولى وهى تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفى المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التى أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات فى الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشرى يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب فى التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله فى التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التى لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذى أحاط بكل شىء علماً، فكل هذه المراحل التى مر بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأمى، أوهذا أخى من الأب فقط، أوهذا من الأم فقط، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتى مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة فى المذهب والعقيدة، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

ليدلنا على أنهم ماداموا قد دخلوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم، وترابط وحماية بعضهم البعض دائما، وحب ووفاق إلى آخر مانعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ماكانوا فيه من آثام بالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التو واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. ومادام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقى الذى يأتى من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم ماداموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسوا منهج الإسلام بموضوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذى يدرسونه، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقد يكون فيهم سارق، وقد يكون فيهم مُرْتشٍ، وقد يكون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: ماهذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لاتنظر إلى المنسوبين للإسلام، ولكن انظر إلى الإسلام فى جوهره ومنهجه: (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التى وجدتها فى عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجا نظريا فحسب، بل هو منهج عملى يطبق فى الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه [1]، وحين يفعل مالا يرضاه الإسلام يُنفّرُ غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذى تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم[1].

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسى فى العالم الإسلامى، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات فى معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامى؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية فى الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هى التى منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر فى هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكى تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التى يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة]

أى نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقى، الذى بينه الله عز وجل فى منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم فى الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد فى مسنده (٢ / ٣٩٧) الترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

فمثلاً في القانون في ألمانيا وصلوا إلى مادة في القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها. وبدأت الدولة في ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بني سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامي المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألماني: نعم. فقال المحامي: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً في منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألماني ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامي المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامي للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابي يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة في بيته، والبيت مملوك للصحابي الشاكي، والنخلة مملوكة لصحابي آخر ،وقد تعوَّد أن يأتي الصحابي صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبي، فتعرضت عورة أسرة الصحابي صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقا وإنه قد آذاني وشق على مكان عذقه فأرسل إليه النبي ﷺ فقال: بعني عذقك الذي في حائط فلان. قال: لا، قال: فهبه لي، قال : لا. قال : فبعنيه بعذق في الجنة ، قال : لا . فقال النبي ﷺ: « ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) في كشف الأستار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب[1]. وكان هذا الفعل هو المثل الحى لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألمانى فى محاضرته ويقول: لقد ظننت أننى قد جئت بشىء جديد، ولكن الإسلام سبقنى إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألمانى بأن الإسلام قد سبقه فى نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك تجد أن صفة الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى أمته[2]، كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين فى علمهم أن يجىء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ،وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ ﴾

ونكثوا الأيمان : أى لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر فى حجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبى فى تفسيره: (الأمى): منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . قاله ابن العربى. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]

العهود، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا فى الدين. أى عابوا فى الدين عيباً مقذعا. وعندما يقال: إنَّ فلاناً طعن فى فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق - سبحانه وتعالى - إما بقتالهم، وإما أن يعلنوا الإيمان. وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سبل المودة ، لكن أئمة الكفر رفضوها.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى : أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون[1]. وهم - كما يقال فى العصر الحديث - مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تخلص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكريم، ومنعوا القبائل التى تأتى للحج من الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمى الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل فى ذات الآية:

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]

وفى هذا يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويحسبون علينا

(١) قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ [سبأ: ٣٣]

بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى أثبت أن لهم أيماناً، ثم قال: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لايجتمعان فى وصف الشخص الواحد؛ ونقول: إنهما لايجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم يعنى : أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧]

فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمى. ويجىء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى فى الأسلوب انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل فى نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه.

أو تقول: ـ كمثال آخر ـ فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، أى أنه أب لابنه ،وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما نسميه انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له ؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار[1] ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال: « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين». أخرجه أبو نعيم (ص٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندى من جيش الكفار، وفى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

[الروم: ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص، ونقول: لا، إنه نفى العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

ونقول: فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أى عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء. وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا، فتقول: ذاكرت وماذاكرت ، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلاوفاء فلاقيمة لأيمانهم. وقوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ،وتنتهى اللجاجة فى أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فى هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر، وعدم تركهم يستشرون فى حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان، وصدهم عن سبيل الله. و«ألا» تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب. وقوله تعالى: ﴿نكثوا أيمانهم﴾ أى نقضوا عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾أى : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، و﴿هموا﴾، أى عقدوا النية على العمل، وقوله تعالى: ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾ أى :أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. والبدء هو : العمل الأول، و«المرة» هو فعل لايتكرر ؛ لأنه إن تكرر نقول: ﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿الطلاق مرتان﴾ [البقرة: ٢٢٩]

هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة.و الإسلام ـ كما نعلم ـ قد واجه

قوتين فى مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام : قوة المشركين من قريش، وقوة اليهود، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال فى بدر. وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير تعويضا عن مالهم الذى تركوه فى مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر[1].

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان [2] إلا أن قريشا هى التى أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان ؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة. كما حاول المشركون إخراجه من مكة، وكان بينه صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله فى المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟. لا ، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكذلك فعل بنو النضير ، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غزوة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من

(١) جاء فى سيرة النبى (٢/ ٢٤٧) لابن هشام أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشا وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره (أى : قطع أنفه)، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (هى: الإبل تحمل الطيب) أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لاأرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(٢) وذلك أن أبا سفيان غيَّر طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبوسفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. انظر سيرة النبى (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

حيثية، ونقضهم العهود وبدؤهم القتال يجعلكم تقاتلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى : ﴿أَلاَ تقاتلون﴾ حث على القتال، أى :ماالذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فالله أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون مايمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولايخشون مايصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار فى آية أخرى من ذات السورة، هى قوله سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر. وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيتا لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنزال .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائى فيقول:

﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة. وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإما أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر ، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجتين خير، أما مايصيب الكفار فهو ينحصر فى أمرين: إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيديكم، وإما أن يصيبهم بعذاب من عنده.

إذن ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر ، نجد أن الجانب الفائز هم المؤمنون ، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسر فى أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يعذبوا بأيدى المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى فى الدنيا أو فى الآخرة. وهكذا وضع الله المقاييس التى تنزع الخشية من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، فلا تولوهم الأدبار أبدا فى أى معركة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية ، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر. ويقول المولى سبحانه:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية ، فهذه خشية لا محل لها

فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِىَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال: قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[١] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[٢].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان فى الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل فى عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع فى الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

ومالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

---

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال:« وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]

قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج - أيضا - قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء ــ كما نعلم ـ إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ــ سبحانه وتعالى ــ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل ليِدُكَّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أي: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم - علم الواقع - من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد في سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضروري لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّي الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا في سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل في شيء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شيء أزلا، ولكن العلم الأزلي لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذي يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أي اختباره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّا» للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى :أنه لم يتحقق المجىء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتؤذن بتوقع ثبوت مابعدها، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبدا، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، أى أن مابعدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى :أن البستان الذى تملكه لم يثمر، ولكنه قد يثمر بعد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القول الكريم: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم إلى الآن، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكنه سلوك سطحى لم يأت من ينابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦]

لايعنى أن علمه متصل بوقت الكلام، فعلم الله تعالى موصول أزلى وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو فى حرب، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يريد بعلم الواقع التميز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج: ٦١]

أى: يُدخل الليل على النهار ويُدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول : «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجة» و«رجال وليجة». كما تقول : «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، «امرأتان عدل»، و«رجال عدل» و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شىء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شىء عن عيون الخالق ؛

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عز وجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[1].

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التى حمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[2]؛ لأن البراءة هى القطيعة، ومعناها ألاَّ يدخل المسجد مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين منْعٌ لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقى الحجيج من شراب الزبيب الذى لم يختمر؛ ومعهم حجاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث فى مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣).

(٢) عن أبى هريرة قال: «بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).